وتغير لونُ السماء

قصص

وتغير لون السماء
قصص

تأليف :
سندس جمال الحسيني

تصحيح لغوي:
سيد عثمان

تصميم الغلاف:
عبد الرحمن الصواف

رقم الإيداع: 2017/11667
الترقيم الدولي: 978-977-820-037-9

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع
٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم
هاتف أرضي: 0235688678- 0235611772
هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794
بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com - kayanpub@gmail.com
الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشرٍ في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذنٍ كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

وتغير لونُ السماء

سندس جمال الحسيني

قصص

أُهــدي كلــماتِ هــذا الكتــابِ إلى مــن علَّمــوني أولَ كلــماتي، وخُطـواتي، وأن الكلمـة روحٌ حـرةٌ لا يكبـح جماحهـا شيء، ومسـئولية كـبرى لا يُعيدهـا بعـد التلفـظ بهـا شيء ... إلى أبي وأمـي.

إلى

المهندس/ جمال خلف الحسيني

والمهندسة/ هناء محمود عبد الغني

منسحبون

بمجرد وصولي لم يستقبلني أحدٌ، بالرغم من الخوف المتجسد في ملامح وجهي، ولحظة التصديق التي أبت أن تراودني، كنت أرغبُ في بعض الصحبة ليفسروا لي ما حدث، ما توقعتُ أن نكون جميعًا في هذا المكان قد مررنا بالشيء ذاته مع اختلاف الأنماط والأزمان والأساليب، بعد فترة وجدت مجموعة من المصريين يجلسون على الحشائش متقوقعين بعيدًا عن الآخرين، عرفتُهم من أصوات ضحكاتهم العالية المصحوبة بالسخرية اللاذعة، فتوجهت إليهم متوجسًا ولكن سعيدًا بالعثور عليهم بعد أيام من الحيرة.

أول ما اقتربت من دائرتهم بدأ الترحيب، قالت فتاة ذات شعر طويل:

- رحبوا بزميلٍ جديد سيقص علينا أخبار الخارج.

ردَّ عليها شابٌّ قصير القامة:

- تتحدثين وكأنها أخبار عظيمة!

فتدخلت فتاة بدينة جدًّا وباسمة:

- على الأقل سيقصُّ علينا قصته هو.

حاولتُ أن أبدو جريئًا، فقلت:

- أنا أريد فقط أن أعرف أين نحن؟

راحت جرأتي مع ضحكاتهم العالية المتهكمة، ثم قال رجل خمسيني:

- لا عليك يا بُني، كلنا سألنا السؤال ذاته في أول يوم.

قلت:

- وهل وجدتم إجابة؟

عادوا للضحك بشكلٍ هستيري، حتى إنني التفتت لأرحلَ، ولكن الشابَّ القصير نهض وأمسك بكتفي وهو يقول:

- أرجوك سامحنا، كلنا مررنا بذلك عقب انتحارنا مباشرة ولفترة لا بأس بها.

حاولت التماسك، ثم قلت:

- أنا لم أنتحر!

بدا على وجهه أمارات الشفقة وهو يقول:

- بعد أيام ستعترف أنك انتحرت، لا تخف، لا أحد سيسألك عن السبب إلا لو قلته أنت بكامل إرادتك، لا سلطة هنا بتاتًا.

شعرت بارتياح شديد بعد تلك الكلمات، كنت أخشى أن

أخضع للتحقيق، وكنت مستعدًا لإنكار التهمة التي قد تجعل أهلي يشعرون بالعار، كما كنت أخشى الشماتة ممن كانوا يكنون لي العداء قبل اتخاذي لتلك الخطوة، ورغم ذلك بدوت مترددًا حتى أضافَ:

- تعال، اجلس معنا واسمع حواراتنا، وليس عليك أن تتحدث إلا حين تشعر بالرغبة في ذلك.

جلست على استحياء، ونسوا وجودي تقريبًا، رغم أنهم كانوا يتحدثون عني أحيانًا، قالت البدينة ذات الابتسامة الساحرة:

- يبدو صغيرًا، المسكين، سيبكي ندمًا بعد أيام، وسيذهب إلى قاعة الاستقبال ويطالب بالعودة، وبعدها سيبدأ في التأقلم والرضا والبحث عن ذاته مرة أخرى هنا.

أردفتْ ذاتُ الشعر الطويل:

- هذا لو كان قد اتخذ قراره بشكل جنوني مثلك، يبدو لي أكثر حكمةً، وقد اتخذه بعد دراسة وافية، بل ولم يجعله واضحًا للعيان، لقد اختفى تمامًا من هناك.

قال القصير متهكمًا:

- لن يختفي طويلًا، في النهاية ظهرت فيرجينيا وولف رغم الحجر الثقيل الذي ربطته بجسدها، لا أحد يختفي إلى الأبد.

ازدردتُ لعابي في صعوبة، وتلفتُّ حولي على أمل أن أراها حولي في مكانٍ ما، لم أجدها، ثم تنبهت أنني لا أعرف شكلها من الأساس!

ردت الفتاة:

- ربما كان أكثر ذكاءً، لا تدري لعل الشرطة في بلادنا أقل اهتمامًا.

خفتُ فعلًا أن يفتضح أمري عند أهلي وأصدقائي، فربما حذا أخي الأصغر حذوي، وربما نُشر الخبر في الصحف فشمت بي الشامتون، لا أعتقد أنهم سيُخضعونني للطب الشرعي، أهلي أبسط من توقع أنني انتحرت! الخوف كل الخوف من مجموعة أصدقائي ورفاقي، فالشك في دمائهم يسري.

قال الشابُّ القصير:

- أتذكر جيدًا تلك الخطوة حين اتخذتها، كان الهواء في الشرفة باردًا جدًّا، شعرت أنه يناديني لأحلق في السماء، خلعت السترة الثقيلة وقتلتها قبلي، وحين طارت مع الرياح قررت أن أطير مثلها، لا لم أقرر شيئًا، لقد حملتني قدماي بسرعةٍ هائلةٍ للوقوف على حافةِ الشرفةِ والقفز، لا أذكر شيئًا بعدها سوى وجوهكم.

قال الرجل الخمسيني:

- وكل مرة لا تذكر لنا السبب.

- أقسم أنه لا يوجد سبب سوى عشق الهواء!

قالت ذاتُ الشعر الطويل:

- كاذب!

- ولماذا أكذب عليكم!

- لابد من لحظة ضيق هائلة! لابد من لحظة انهيار، حتى لو سبقت عشقك للهواء كما تدعي!

- كنت أعشق أن أختار لنفسي، أن أكون صاحب القرار، وأعجبتني فكرة أن أكون أنا من يُحدد تلك الساعة.

- كلنا هذا الشخص، حتى كليوبترا قالت ذلك، ومارلين مونرو، ولكنهم مرُّوا بلحظات دمار شامل أدت إلى هذا القرار.

كنت قد بدأت في تخيل الموقف، هذا المكان هو للمنتحرين فقط! وأنا الذي ظننتُ أنني سأقابل أصدقائي من الشهداء والمقتولين، وجدي وعمي وأمي! ها قد تم عقابي بألا أقابل إلا من يتفلسفون ويُكثرون من اللغط.

قال الشاب القصير:

- أشعر أنني قد رأيت وجهه من قبل، ربما كان معي بالجامعة ذاتها؟

بدأت في التوتر، كنت أتمنى أن يكونوا قد انتحروا قبل أن يصبح لوجهي تلك الشهرة، قال الرجل الخمسيني:

- ربما كان يعمل في مجال الفن، يبدو وجهه مألوفًا لي أيضًا، قبل لحظتي كنت أتابع الفن عن كثب.

تدللتْ ذاتُ الشعر الطويل وهي تقول له:

- ولماذا تلونت حياتك باللون الأسود حتى قررت هذا القرار؟

- أنتِ تعرفين!

- ولكن في كل مرة تذكر تفاصيل جديدةً لم أكن قد سمعتها من قبل.

- تعرفين أنني فقدتُ معنى الوجود، بعدما ماتت ابنتي، كنت أظن أنني سأراها حين أفعل ذلك، منعوني عدة مرات، وأنقذوني مرتين، وفي الأخير انتصرت إرادتي.

ضحكتُ لأول مرة، هو أيضًا ظنَّ أنه سيقابل الراحلين، والآن كيف السبيل إلى العودة؟

قالت الفتاة البدينة عذبة الكلمات:

- تقليدي جدًّا أنت، حزنت بشدة، اكتأبت، تناولت أدوية الاكتئاب بلا جدوى، انتحرت في لحظة جنون، أندمت؟

- بشدة! ولكن أحيانًا تتملكني روح من هدوء وسكينة، على الأقل عرفت نهايتي ولم أعد أكترث بالمستقبل، ولكن هدفي لم أصل إليه وهذا ما يشعرني بالندم، ربما لو انتظرت ساعتي كالآخرين المغلوبين المنقادين إلى مصائرهم، لذهبت إلى المكان الآخر حيث ابنتي.

ربتت الفتاة البدينة ذات العيون الغارقة في السحر على كتفه، ونظرت إليَّ مباشرةً بحنو بالغ، لم أفهم لماذا ارتحت لنظراتها وكنت أود أن أعرف سبب انتحارها، لم تنطق، بل بدأ الشاب القصير في السخرية والمزاح حتى قال:

- نحن مجموعة خاسرين! لا يوجد أي فرد من مجموعتنا

غـير خـاسر.

قالت ذات الشعر الطويل:

- مخطـئ أنـت يـا عزيـزي، هنـاك الكثـيرون ممـن انتحـروا في عـزِّ مجدهـم ونجاحهـم، ومنهـم مـن سـأم الحيـاة رغـم كونهـا كانـت سـخية معـه بـلا حسـاب.

ضحك وقال:

- أي حيـاة وأي سـخاء؟ تقصديـن النجـاح الأدبي والشـهرة والمـال؟ بالطبـع كان لديهـم بـؤس مـا جعلهـم خاسريـن في مواضـع أخـرى، جعـل منهـم مدمنـين لأي شيء يـسري في دمائهـم فيغـيِّر مـن تكويـن عقولهـم، بالتأكيـد كرهـوا حياتهـم لأسـباب حقيقيـة.

تـسرب الملـل إلى نفـسي سريعًـا، لم أتخيـل كيـف سـأقضي الأيـام في هـذا المـكان، فجـأة قلـت:

- ولماذا أقدمت فتاة جميلة العينين مثلكِ على الانتحار؟

نظـر لي الجميـع مندهشـين، لم تـدرك هـي أننـي أتحـدث عنهـا، إلا حـين لاحظـت أننـي أنظـر إليهـا، ضحكـت ضحكـة هـي الأكـثر صفـاءً بـين الضحـكات التـي يـتردد صداهـا في العـالم، ثـم قالـت:

- لأنه لا أحد في حياتي السابقة كان يراني مثلما رأيتني أنت.

شـعرت بالرهبـة بعـد كلماتهـا بـلا سـبب واضـح، ربمـا لأننـي لم أعتـد كلمـة حيـاتي السـابقة بعـد، لازلـت أشـعر أننـي سـأعود وسـأخبرهم بدوافعـي، أو سـيكون هنـاك فرصـة أخـرى في الحيـاة

التـي اعتدتهـا، قلـت بصعوبـة:

- لا داعـي للسـخرية والضحـك، ولكـن هـل هنـاك مـن أي سـبيل للعودة؟

ضحكـوا رغـم طلبـي، توتـرت وقـررت أن أتركهـم، ولكـن الشـاب القصـير اسـتوقفني وقـال:

- حسـنًا أنـا أعرفـك! لكـن سـامحني لا أذكـر متـى رأيـت وجهـك في الحيـاة الأخـرى، هـلا عرفتنـا بنفسـك؟

- لا أرغـب في أن يعرفنـي أحـد، لا أحـب أن يُذكـر اسـمي في أي مـلأ.

- ولكننـي أشـعر بفضـولٍ غامـر، لا أسـتطيع أن أوقـف سـيل الأسـئلة! أشـعر أنـك هـو، نعـم أنـت هـو مـن أظـن، ومـن أرفـض أن أظـن أنـه هـو.

اندهـش الجميـع مـن تلـك اللهجـة، عرفـت أنـه يعرفنـي، ويرفض أن يصـدق أن النهايـة كانـت أننـي انتحـرت، قلـت بسرعـة:

- لسـت هـو، أنـا أشـبهه فقـط، الآخـر مـات مقتـولًا عـدة مـرات، في كل مـرة كانـوا ينقذونـه قبـل الرمـق الأخـير، ولكننـي لسـت هـو.

- هل تقصد لم تعد هو؟

- أقصـد أنـه قـد مـات قبـل انتحـاري بزمـن طويـل، زمـن يطـول في نظـري وفي عمـر الزمـن هـو زمـن لا يسـاوي غفـوة ظهـيرة.

قام الرجل الخمسيني وعلى وجهه علامات البؤس يقول:

- لو كنت أنت الذي نظن أنه هو، وكانت نهايتك هناك أنك قد انتحرت! إذن لا فائدة في حياتنا السابقة ولنشكر الظروف التي قادتنا إلى أن نتخلص من حيواتنا، لا أمل ولا هدف بعد انتحارك.

آلمتني كلماته، أعرف أنه محق، وأن اكتشافه هذا هو ما دفعني للخلاص، لم أنسحب لأنني جبان، بل لأنني أقوى من تصور أنني سأتمكن من مواصلة الكفاح، الخصم الرعديد يستمر في حرب يعرف أنه خاسر فيها، فيترك نفسه ليصبح مهزومًا بيد عدوه، بينما المقاتل الشجاع ينسحب، حاولت أن أعبر عن تلك الحالة ففشلت، صمتُّ تمامًا منكسَّ الرأس، لم أندم، ولكنني حرصت ألا يعرف باقي المقاتلين أنني قد انسحبت في هذا الهدوء، كنت لا أزال أتسلح بأمل أن ينجح أحدهم في الفوز بتلك المعركة، ربما ظهر من هو أقوى مني في العقود القادمة.

قالت ذات العيون المذهلة:

- لا عليك، لا تحمل نفسك ما لا طاقة لك به، كلنا انسحبنا لأننا رفضنا الاستمرار في الألم.

كيف عرفت ما أفكر به! فأضافت:

- لا تندهش من كوني أعرف ما يدور بخلدك، كلنا مررنا به ونشبه بعضنا ولكننا لا نعترف.

ابتسمتُ لها ممتنًّا، ثم قلت:

- حسـنًا أنـا هـو! هـو مـن تظنـون، ومـن كنتـم تعتقـدون أنـه رمـز الثـورة والأمـل، انتحـرت بكامـل إرادتي، لسـت نادمًـا، ولكننـي أخـشى أن يسـتغل عـدوي رحيـلي في تثبيـط عزيمـة الآخريـن، انسـحبت لأننـي أضعـف منـه قـوةً، انسـحبت لـكي تكـون يـدي هـي الفاعلـة، لا يـده ولا يـد جلاديـه.

بينـما يسـمعونني، وكلـماتي تتواصـل في بـث روح الرضـا بداخـلي، ظهـرت في الأفـق مجموعـة مـن الشـباب والبنـات يحملـون الأعـلام ويتقدمـون نحونـا في خطـوات ثابتـة، حـين اقتربـوا عرفـت الوجـوه، هـؤلاء رفاقـي لا ينقصهـم أي واحـد!

صرخت:

- لماذا أتيتم!

أجاب رفيق الكفاح:

- تركنـا السـاحة لـه فليحـارب وحـده، فلينتـصر وليشـمت في غبـار الأرض وريـاح السـماء وصخـر الجبال.

ازدحـم المـكان، مـا بـين مندهشـين وفرحـين، شـعرت بغبطـة غريبـة، صـار لنـا عـالم خـاص بنـا، تركنـا سـاحتنا وسـاحة أجدادنـا، فليفـرح بالنـصر الوهمـي، وليبحـث عمـن يسـتعبده، فـلا يجـده.

قالت لي زهرا

بخطـوات بطيئـة في مسـيرة معظمهـا أفغـانٌ وباكسـتانيون، بالإنجليزيـة قالـت لي زهـرا:

- المصريون هم أجمل شعوب الأرض.

- نعم؟

- بالتأكيد؛ لأن حضرة يوسف عليه السلام كان من هناك.

- حسـنًا هـو لم يكـن في الأصـل مـن مـصر، كان مـن الشـام، وبغض النظـر، فنحـن نشـبهكم كثيرًا، وعـلى العموم شـكرًا.

- ليـس لدينـا هـذه العيـون الفرعونيـة المتميـزة، إنهـا الأجمـل عـلى الإطـلاق!

ضحكـتُ بـلا تعليـق؛ كنـت سـعيدة لأننـي وجـدت أخـيرًا لسـانًا ناطقًـا بالإنجليزيـة السـليمة وسـط كل هـذا الأوردو والفـارسي، بينما نحـن في ألمانيـا! ولأننـي وجـدت مـن لا يسـألني عـن الحـرب في مـصر، فمنـذ قليـل كنـت قـد شرحـت بنفـاذ صـبر لأحدهـم وأنـا غير واثقـة مـن كونـه قـد فهـم، أننـا لا نعيـش أي حـرب مـن أي نـوع! هنـاك بعـض القلاقـل والنزاعـات العاديـة، ولم نعـش أي حـرب منـذ سـنوات طـوال هـي بعمـر أبي! لكـن كان هـذا الخلـط بـين كل دول

الـشرق الأوسـط في عقـول النـاس هنـا مزعجًـا جـدًّا، وكثـيرًا جـدًّا. كـما كنـت سـعيدة لأنهـا لـن تبـدأ بسـؤالي عـن سـبب وجـودي، أو ملابـسي، أو لـوني، أو كيـف سـمح لي رجـال أسرتي بالتواجـد خـارج المنـزل، كـما سـألتني تلـك الفتـاة الأوكرانيـة في الجامعـة بـكل اهتـمام. كنـت أتعـرض كل يـوم إلى سـيل مـن الأسـئلة الغريبـة التـي لـو فكـر طارحوهـا في إجابتهـا للحظـات لمـا طرحوهـا، وكانـت هـي شرقيـة إلى حـد مـا، فلـن تسـأل.

رحـت أسـتمع إلى زهـرا وهـي تحـكي وتحـكي، حكايـات لا تشـبه غـرض المسـيرة عـلى الإطـلاق، قالـت:

- لقـد وصلـت إلى ألمانيـا منـذ ثلاثـة أشـهر. ولازلـت في بدايـات تعلـم الألمانيـة، لا أعـرف منهـا بعـد إلا بضـع كلـمات.

- لأول مرة؟

- نعـم، لأول مـرة أخـرج مـن إسـلام آبـاد. تعرفـين إسـلام آبـاد هـي العاصمـة، أنـا أحبهـا كثـيرًا.

- هذا طبيعي أن تحبينها كثيرًا، هي بلدك.

- لا هـي حقًّـا جميلـة وتسـتحق هـذا الحـب، أشـتاق إلى الطقـس وإلى النـاس، وحتـى الزحـام ورائحـة الأسـواق المشـبعة بالتوابـل.

- لكن قلتِ لي إن أمَّكِ ألمانية، كيف لم تأتِ معها من قبل؟

كانـت أخبرتنـي في بدايـة التعـارف أنهـا تحمـل الجنسـية الألمانيـة منـذ مولدهـا؛ لأن والدتهـا ألمانيـة، كنـت قـد لاحظـت اختلافًـا في ملامحهـا وألوانهـا عـن باقـي الباكسـتانيات، ولكـن هـي تطوعـت

بإخبـاري بالسـبب الـذي أدخـل اللـون الأزرق إلى عيونهـا دون أن أسـأل. قلـت مازحـةً:

- هـذه غلطـة أمـك أنهـا لم تعلمْـكِ لغتَهـا، في العـادة تحـرص الألمانيـات عـلى التحـدث بالألمانيـة مـع أطفالهـن، بـل وحتـى أزواجهـن! هـل كانـت تتحـدث معـكِ بـالأوردو؟

ابتسمت وهي تقول:

- لم أر أمي منذ كنت في الثالثة من عمري.

كان لزهـرا ابتسـامةٌ خلابـة تجعـل عينيهـا تضيـق قليـلًا، ووجنتيهـا تضيـآن، كانـت تبتسـم بـلا انقطـاع كاشـفة عـن جـزء صغـير مـن أسـنانها. ابتسـمتُ أنـا أيضًـا ثـم أردفـتُ محاولـةً عـدم إضفـاء لمسـة حـزن عـلى صـوتي:

- ظلمناها، لم تكن مخطئة إذن.

ضحكت بصفاء شديد ثم قالت:

- أتيـت إلى ألمانيـا بنـاءً عـلى رغبـة جميـع عائلتـي في باكسـتان، ولكننـي في الحقيقـة أتيـت لأبحـث عنهـا، أريـد حقًّـا أن أراهـا، أتمنـى أن أجدهـا تفهـم بعـض الأوردو أو حتـى الإنجليزيـة.

- لا تقلقي ستجدينها وستجدين وسيلة للتواصل.

- لقـد انفصلـتْ عـن أبي بعـد أن كانـت تعيـش معنـا في إسـلام آبـاد، وكانـت تسـأل عنـا بـين الحـين والآخـر، عـن طريـق أبي، حتـى تـوفي منـذ عـدة أعـوام. ومـن وقتهـا لم أسـمع عنهـا شـيئًا.

فـي **كيـان للنشـر والتوزيـع**، هدفنـا نشـر كل إنتـاج إبداعـي، جودتـه عاليـة، وأفـكاره أصيلـة، فـي مختلـف مجـالات الأدب والسياسـة والصحافـة والفـن، باللغـة العربيـة والإنجليزيـة. نهتـم بالمواهـب، ونرعاهـا، ونتيـح لهـا فرصـة الوصـول للقـارئ العربـي، مـع مراعـاة أفضـل معاييـر الجـودة والاحترافيـة فـي النشـر.

رسـالتنا فـي كيـان، تشـجيع حـب القـراءة والكتابـة فـي مصـر وعالمنـا العربـي، وتطويـر مهـارات الإبـداع، وتعزيـز ثقافـة التميـز والابتـكار. كُتّابنـا موهوبـون، متمرسـون، مصريـون، ومـن جميـع أنحـاء الوطـن العربـي، وإصداراتنـا متنوعـة، متميـزة، مختلفـة. دائمًـا نرحـب بالكتـاب الشـباب، والمواهـب الجديـدة، ونعطـي فرصـة متسـاوية للجميـع؛ لأن مرادنـا هـو الارتقـاء بفنـون الأدب العربـي ككل، والوصـول بالإنتاجـات الابداعيـة العربيـة إلـى العالميـة .

لـو تحـب **تراسـلنا،** لـو عنـدك استفسـار، لـو حابـب ترسـل لنـا إنتاجـك الأدبـي، سـواء كـان روايـة، أو شـعر، أو مقـال، باللغـة العربيـة أو الإنجليزيـة، مـا تترددش.

ابعـت لنـا علـى:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235611772 -0235688678**

هاتف محمول: **01000405450 / 01005248794 /01001872290**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتّابنا الثقافية:

kayan_publishing

Kayan.publishing

kayanpublishing

Kayanpublishing

KayanPublishing

+KayanPublishing